

ماهية الخطاب الإستشراقي في فكر "إدوارد سعيد"

The Nature of the Orientalist Discourse in the Thought of "Edward Said"

نعيمة بن صالح

جامعة الجزائر 02-، كلية العلوم الإنسانية، قسم الفلسفة
naimabensalah1@gmail.com

تاريخ النشر: 2021/12/30

تاريخ القبول: 2021/10/01

تاريخ الإرسال: 2021-09-15

الملخص

يهدف هذا المقال العلمي إلى تحديد ماهية الإستشراق عند المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" بالنظر إلى الدراسة النقدية التي مارسها على الخطاب الإستشراقي. وهي دراسة إبستمولوجية اعتمد فيها على مناهج فكرية معاصرة (النقد الأدبي، النقد التاريخي... .) في قراءته للإستشراق الأمريكي والبريطاني والألماني خاصة. وذلك بتحديد الأصول والآليات المنهجية التي قرأ بها الخطاب الإستشراقي من جهة، ومختلف المفاهيم التي وظّفها (الغرب، الشرق، الهيمنة، الدنيوية... .) في هذه القراءة من جهة أخرى. مع محاولة معرفة درجة العلمية والموضوعية من رؤية "سعيد" للخطاب الإستشراقي.

-الكلمات المفتاحية: إدوارد سعيد، الخطاب الإستشراقي، الشرق، الغرب، الهيمنة، الإستشراق، المستشرقون، النقد الإنساني،

Abstract:

This scientific article aims to determine the nature of Orientalism for the Palestinian thinker "Edward Said" in view of the critical study he practiced on the Orientalist discourse. It is an epistemological study in which he relied on contemporary intellectual methods (literary criticism, historical criticism... .) in his reading of American, British and German Orientalism in particular. By defining the origins and methodological mechanisms by which he read the orientalist discourse on the one hand, and the various concepts he employed (west, east, hegemony, worldly...) in this reading on the other hand. With an attempt to know the scientific and objective degree of Criticism,... .Saeed's vision of the orientalist discourse.

Keywords : Edward Said, Orientalist Discourse, East, West, Hegemony, Orientalism, Orientalists, Human criticism,... .

مقدمة:

إذا كان الإستشراق تعبيراً عما وصل إليه الفكر الغربي من دراسات حول العالم الشرقي (الشرق الأدنى والشرق الأقصى)، تاريخه وعلومه وفنونه وثقافته، فإن الخطاب الإستشراقي لقي نقداً من طرف العديد من المفكرين من الشرق والغرب على السواء، نظراً لمواقفه الذاتية التي تعبّر عن النظرة الغربية للشرق. من هؤلاء المفكرين: المفكر الفلسطيني -الأمريكي "إدوارد سعيد" الذي يعتبر من بين أهم الباحثين الذين اهتموا بنقد الإستشراق، من حيث دراسة تاريخ الخطاب الإستشراقي، وبيان أسبابه وأهدافه من جهة، ومن حيث نقد بنية هذا الخطاب والكشف عن مختلف تناقضاته ونزعتة الإيديولوجية في الهيمنة والسيطرة من جهة أخرى.

لذلك، نتساءل في هذا المقال العلمي عن ماهية الخطاب الإستشراقي في فكر "إدوارد سعيد"، وعن مختلف الآليات المفهومية والمنهجية ذات الطابع الإبيستيمولوجي التي وظّفها في الكشف عن بنية الخطاب الإستشراقي، والنتائج التي توصل إليها بهذا النقد الإبيستيمولوجي؟

فما هي ماهية الخطاب الإستشراقي في فكر "إدوارد سعيد"؟ وماهي الآليات والمناهج الفلسفية والنقدية التي قرأ بها هذا الخطاب؟ وما مدى مشروعية هذا النقد منهجياً ومعرفياً؟

ولتحليل هذه الإشكالية الفلسفية، اتبعنا المنهج الإستقصائي والنقدي تماشياً مع طبيعة الموضوع المطروح، حيث حاولنا الإلمام بماهية الخطاب الإستشراقي في فكر "إدوارد سعيد" من خلال ضبط مختلف المفاهيم والمناهج التي وظّفها في تحليله النقدي لهذا الخطاب، وإبراز الهدف من هذه الدراسة النقدية للإستشراق، مع تحديد أهم النصوص الإستشراقية التي قرأها قراءة نقدية. لذلك، حدّدنا خطوات الدراسة كما يلي:-

1: التعريف بإدوارد سعيد.....د.

2: مرجعياته الفكرية والفلسفية.

3: الهدف من دراسة الإستشراق.

4: المنهج في دراسة الإستشراق.

5: مفهوم الإستشراق.

6: بنية الإستشراق.

-الخاتمة: نقد وتقييم.

إذا كان "إدوارد سعيد" يحاول نقد مظاهر الخطاب الإستشراقي، أي الكشف عن تداعياته وامتداداته في المجال السياسي والثقافي والاقتصادي والحضاري، ويحاول أن يوفق بين أصوله الشرقية وثقافته الغربية من خلال نقده الخطاب الإستشراقي، فهذا يستدعي منا ضرورة الوقوف على شخصيته المزدوجة بين الشعور بالهوية والانتماء إلى ثقافة شرقية أصيلة بمقوماتها اللغوية والعقائدية والثقافية والحضارية من جهة، وبين شعوره بالانتماء الممتد إلى ثقافة غربية أمريكية، فمن هو إدوارد سعيد؟

1: التعريف بإدوارد سعيد.

ولد المفكر الناقد والأكاديمي العربي المعاصر "إدوارد سعيد" في مدينة القدس سنة 1935م، وهو فلسطيني الأصل، أمريكي الجنسية، ينحدر من أسرة بروتستانتية ميسورة الحال. زاول تعليمه الابتدائي في القدس وفي مصر، حيث تلقى تعليمه الأول بمدرسة "سان جورج" بالقدس، ثم في مدرسة الجزيرة الإعدادية، تخرج بعدها من كلية "فيكتوريا بالقاهرة". هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1951م، حيث أتم دراسته الجامعية في جامعة "ماونت هرمون" بماساشوسيتس وجامعة "برنستون". نال درجة الماجستير والدكتوراه من جامعة "هارفارد" التي درس بها أعلام النقد الجديد وأساطين الإستشراق الأمريكي.

عمل أستاذا زائرا في جامعة هارفارد (1974م)، وزميلا في مركز الدراسات المتقدمة في العلوم السلوكية بجامعة ستانفورد (1976-1975م)، ثم محاضرا في برنستون (1977م). وأستاذا زائرا في جامعة هوكينز. كما عمل أستاذا للأدب الإنجليزي والأدب المقارن. وشغل منصب رئيس قسم الأدب المقارن بجامعة كولومبيا في نيويورك.

ويعد كتابه: "خارج المكان" المؤلف الذي يسرد فيه سيرته الذاتية، حيث يقول: "إنّ الكتابة الصريحة عن الذات، نادرة في تراثنا، وإنني لأمل أن يسهم هذا الكتاب في تنمية هذا التقليد، فإذا تحقّق ذلك بلغت الغاية في الرضا" (سعيد إدوارد، 2000: 12)، ففي هذا الكتاب رسم مسار علاقته بالمكان وبالهوية وبالذاكرة.

وفي حديثه عن هويته المركبة المزدوجة يقول: "...العالم الذي تنتمي إليه عانلتي وتاريخي وبيئتي وذاتي الأولوية الحميمة وهي كلّها عربية- من جهة، وعالم تربيتي الكولونيالي وأذواقي وحساسياتي المكتسبة ومجمل حياتي المهنية معلما وكاتبا من جهة أخرى". (سعيد إدوارد، 2000: 08)

ومن العوامل التي شكّلت لدى "سعيد" قلقا نفسيا ووجوديا (على المستوى الهوياتي) وفكريا، اسمه المركب: إدوارد سعيد (لفظ غربي-عربي) واللغة التي شكّلت فكره (عربية-إنجليزية)، فهو لم يدرك اللغة الأم التي يتحدث بها.

إذن، من أهمّ العوامل التي شكّلت شخصيته وفكره: الاسم المركب، التعددية اللغوية، المرجعية الدينية والإثنية (فهو ينتمي إلى الديانة المسيحية والأقلية في فلسطين). وحياة المنفى التي لا توحى لسعيد بالغربة والهجرة والإقتلاع، بل أكسبته التجربة وذلك الانفتاح وعيا نقديا، فقد أنتجت منه مثقفا منطلقا وأكثر استقلالية وحضور بين الثقافات.

لقد ساهمت شخصية "إدوارد سعيد" الإزدواجية (المنفى-الموطن) في تشكيل منظوره الفكري والإنساني، فهو يندّد مثلا بالمنظور الأمريكي للقضايا العربية وبسياسات الهوية والقومية.

هذا، ونضيف أنّ "إدوارد سعيد" من رواد النّظرية ما بعد الكولونيالية، إذ يعدّ من أهمّ منظّري نظرية ما بعد الإستعمار، حيث مهّد للنظرية ما بعد الكولونيالية خصوصاً من ناحية مفهوم المركزية الكاشف عن تمفصلات الثقافة والقهر الإمبريالي. كلّ ذلك في إطار السّعي إلى فكّ الإستعمار عن العالم الثالث. وهذا واضح في كتاباته وخاصة "الإستشراق" و"الثقافة الإمبريالية"، ففي الأوّل مثلاً: استطاع أن يفتح حقلاً معرفياً من البحث الأكاديمي وهو الخطاب الإستعماري، خطاب تلتحم فيه القوة السياسيّة بالمعرفة وبالإنتاج الثقافي كما سنبيّن لاحقاً في مفهومه للإستشراق..

لذلك، نجده من طليعة محلّي الخطاب الإستشراقي، ومن رواد التّقد الثقافي، لأنّه اهتمّ باستكشاف الأنساق الثقافيّة المضمرّة في المؤسّسات المركزية الغربيّة، عبر تحليل الخطاب الإستشراقي تفكيكاً وتشريحاً. إنّهُ مفكّر وناقد ومنظر أدبي وأكاديمي ومفكّر عالمي، منحاز للحق وللإنسانية.

فقد عرف بمناصرتة لقضايا الشعوب العربيّة المستعمرة الواقعة تحت وطأة الإستعباد والظلم والعنف من الدول المستعمرة. وبنضاله المستمرّ بالحديث عن قضايا اللاّجئين والمنفيين، خاصة القضية الفلسطينيّة التي خصّص لها كتاب: "المسألة الفلسطينيّة" (1997).

كما تكمن أهميّة "إدوارد سعيد" الثقافيّة والفكرية في تنوّع اهتماماته وتعدّد طاقاته، التي تتجاوز الأدب المقارن والدراسات النقديّة إلى حقول معرفيّة مختلفة أبرزها الدّراسات الأنثروبولوجيّة وتاريخ الفن ودراسات ما بعد الكولونيالية والنّظرية الثقافيّة. لذلك، تنوّعت دراساته بين النّقد الأدبي والسياسة ونقد الموسيقى ودراسات المسماة بتحليل أنظمة الفكر. وله ما يقارب 17 كتاب نذكر منها: الإستشراق (1978)، تغطية الإسلام (1981)، الثقافة والإمبريالية (1993)، صورة المثقف (1994)، وغيرها.

2: مرجعيات "إدوارد سعيد" الفكرية والفلسفية.

لقد ساهمت مجموعة من العوامل في تشكيل الوعي النقدي لإدوارد سعيد، منها تأثّره بفكر ما بعد الحداثة وفكر أهمّ الفلاسفة: ميشال فوكو، أنطونيو غرامشي، وغامبا تيبستا فيكو، كيف ذلك؟

1-2: ميشال فوكو: Michel Foucault (1926-1984م)

يظهر تأثّر "إدوارد سعيد" بفكر ميشال فوكو في استخدامه للسلطة والمعرفة، فاعتبره "سعيد" مصدره خاصة في كتابه "الإستشراق" الذي "يدين ديناً عظيماً لتنظيرات فوكو حول العلاقة بين السلطة والمعرفة، ذلك أنّ سعيد ينظر إلى التمثيلات الفوكوية المتعلّقة بالنظام والإستقرار والسلطة التنظيمية للمعرفة بوصفها المفهوم المؤسّس لكلّ مؤسّسات الحكم". (واليا

شيلي، 2007: 32) إذن، يستقي "سعيد" أنموذج السلطة والمعرفة من فوكو لاعتبارهما مصادر ومؤسسات الحكم المصحوب باستراتيجيات القهر والإقصاء عن طريق السلطة.

كما استقى عنه مفهوم الخطاب، وأكد ذلك في مقدمة كتابه: "الإستشراق"، فوجد في استخدام فوكو لتحديد الخطاب ذا فائدة لتحديد هوية الإستشراق. فإذا كان فوكو يرى الخطاب بوصفه جميع الملفوظات التي لها بعض التأثير في المجتمع، وهي مجموعة خاصة من الملفوظات التي تمتلك مع التماسك والسلطة لكي تقوم بالمراقبة والتحكم، فإن "سعيد" يستثمر المنتظم الفوكوي ليضع مجموعة متباينة من النصوص ليعين خطاب الإستشراق، ويمضي لينظر في البنى التي تكمن من وراء إنتاج النصوص والملفوظات التي تبدو ضرورية لفهم استراتيجيات المعرفة والسلطة". (واليا شيلي، 2007: 33)

2-2: أنطونيو غرامشي Antonio Gramsci (1891 - 1937م)

تأثر "سعيد" بالفيلسوف الإيطالي "أنطونيو غرامشي" من خلال نزعه التاريخية والإنسانية، وذلك عبر مصطلح "الهيمنة" الذي يربط بين القبول الذاتي وبين العمل على تكريس السلطة، بالاعتماد على عمليتي الإقناع والتعاون مع مؤسسة الحكم" (واليا شيلي، 2007: 36). وهذا يعني أن الهيمنة تشمل كل من السلطة والحكم والسيطرة السياسية للدول ذات السيادة للدول الضعيفة باستخدام الحرية والتعاون مع مؤسسة الحكم.

يحاول "سعيد" توظيف مصطلح "الهيمنة" للتمييز بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، فالأول يعني الهيئات الطوعية، مثل المدارس والتّقابات. والثاني يعني مؤسسات الدولة التي تتولّى السيطرة المباشرة على الشعب. والهيمنة أكسبت الإستشراق استمرارا وقوة إلى اليوم. كما أخذ عنه مفهوم "المتقف العضوي" الذي يخطر في مشكلات مجتمعه.

2-3: غامباتيستا فيكو Giambattista Vico (1688-1744م)

هو فيلسوف إيطالي ومؤرخ قانوني، وهو رائد النزعة التاريخية. وقد أشاد "سعيد" بأهمية فيكو وبفضله الكبير في بسطه لفكرة النزعة التاريخية باعتبارها تنزع نحو إنسانية الإنسان، والتي استقاها من عنده وكانت مميزة في مشروعه النقدي ولمعظم أعماله الأدبية والنقدية. وقد هيمنت هذه النزعة في نقده للإستشراق ونقده للثقافة والإمبريالية. وفي هذا يقول:

"والنقطة المركزية من صنع البشر، ومادام الصراع من أجل السيطرة على الأرض هو جزء من التاريخ، كذلك، فإن الصراع على المعنى التاريخي والاجتماعي أيضا من صنع التاريخ، ومهمة الباحث النقدي ليست فصل صراع عن آخر، بل بربطهما، وعلى الرغم من التباين بين المادية الطاغية في الأوائل، والتقنيات المنتمية إلى عوالم أخرى في الثاني، وطريقتي التي أتبعها في إظهار أن تطوّر وصيانة كل ثقافة يقتضيان وجود أنا أخرى ومختلفة ومنافسة". (سعيد إدوارد، 1996: 12)

ولنا الآن أن نتساءل: فيما تمثّلت الرؤية المنهجية التي اعتمدها "إدوارد سعيد" لتحديد المفاهيم الغربية للشرق، وما هي آليات الممارسة النقدية التي سخرها لتفكيك خطاب الإستشراق؟ سنجيب عن هذا التساؤل من خلال تحديد المفاهيم التي استند إليها في تحليله

للخطاب الإستشراقي، وخاصة المنهج عنده، مع إبراز الهدف من هذه الدراسة النقدية للخطاب الإستشراقي.

3: الهدف من دراسة الإستشراق.

إنّ التوجّه النقدي للخطاب الإستشراقي كان حاضرا بشكل بارز في كتابه: "الإستشراق" (1978م) الذي ترجم إلى عدة لغات عالمية: فرنسية وإنجليزية وألمانية وإسبانية وإيطالية وتركية وفارسية وماليزية، حيث تصدّى فيه "إدوارد سعيد" لشرح وتفسير المواقف المختلفة للغرب تجاه الشرق عامة والثقافة الإسلامية خاصة. وهو كتاب يعكس بوضوح ذلك التلاقي والتلاحم بين تخصصات وحقول معرفية مختلفة ومتباينة، مما يمنح الإستشراق حدودا واسعة للتعامل معه كنص مفتوح ممتلئ بأشكال سردية وتحليلية وتاريخية متعدّدة.

يستهدف كتاب "الإستشراق" المقال (الخطاب الإستشراقي) بالنقد والتحليل الأكاديمي، حيث حرص فيه "إدوارد سعيد" على التنبيه إلى كونه لم يضع تاريخا سرديا أو موسوعيا عن الإستشراق. وقد ربط الإستشراق بالجغرافيا والسياسة وبمنظومة الغرب الثقافية وإدعاءاتها الموضوعية. كما أضاف اللثام عن طبيعة الوعي الغربي، في تعامله مع غير الغربي والكشف عن الإستراتيجية التي تهدف إلى تطويعه والهيمنة عليه واستعمارها.

ففي هذا الكتاب، ينطلق "إدوارد سعيد" من تفكيك المتعارف عليه المهيمن والسائد، مع تحديد الخلفيات التاريخية والفكرية للإستشراق، وفهم وتحليل وتفكيك البنية الممتلئة عن الشرق من قبل الغرب. وفي تفكيكه لهذه البنية، يتناول العديد من أصحاب التخصصات والأنشطة التي تندرج ضمن هذا النشاط، منهم الشعراء والروائيون، الفلاسفة، المنظرون السياسيون، والإقتصاديون، والإداريون الإستعماريون الذين يبنون أعمالهم وأنشطتهم على هذا التمييز المسبق بين ما هو شرقي وما هو غربي.

إنّ هذا الكتاب يهدف إلى تخطّي الهوة بين الشرق والغرب من خلال إثارة قضية التعددية الثقافية، حيث يرسم فيه "إدوارد سعيد" صورة معبرة عن ذلك السلوك الاستعماري الذي يتخفى وراء أقنعة إنسانية كإنقاذ الشعوب ومساعدتها وجلب الديمقراطية لها. ويبيّن في الفصل الأول منه أنّه يدرس الإستشراق بوصفه تبادلا حيويا بين مؤلفين أفراد وبين المؤسسات السياسية الواسعة التي شكّلتها الإمبراطوريات العظيمة الثلاث (بريطانيا وفرنسا وأمريكا) وهي التي أنتجت الكتابة الإستشراقية ضمن حدودها الفكرية والتخييلية.

أمّا في الفصل الثاني منه، فيتحدّث "سعيد" عن البنى الإستشراقية وإعادة خلق البنى، وعن الحدود التي أعيدت صياغتها، والقضايا التي أعيد تحديدها. ويستشهد ببعض المفكرين الغربيين ممثلا ببعض أقوالهم التي اختارها من ضمن مؤلفاتهم مثل "غوستاف فلوبير" Gustave Flaubert (1801-1880م) وروايته الملهاة الموسوعية التي يستنبط منها الصورة المزرية للغرب تجاه الشرق.

هذا، ويكشف كتاب "الإستشراق" عن عدد من المحدّدات والأسس التي ارتكز عليها في قراءته لبنية الإستشراق، حيث يركز "سعيد" على الإتّساق والتماسك الداخلي للإستشراق وأفكاره عن الشرق، ولعلّ هذا الإتّساق والتماسك الداخلي هو ما يؤكّد وجود بنية مسبقة ومهيمنة عند المستشرقين لتناول الشرق ووصفه وصناعته، بغض النظر عن التحوّلات الفعلية والتاريخية التي يتعرّض لها الشرق.

ولم يكن يهدف "سعيد" من وراء كتابه تقديم صورة جديدة عن الشرق عامة وعن العرب والمسلمين خاصة، أو أنّه يدافع عن الإسلام ويتّهّم على الإستشراق والدّول الداعمة له، فكلّ ما كان يعنيه هو تناول هذه البنية الإستشراقية بالفحص والنّحليل. ومحاولته تعرية الخطاب الإستشراقي من خلال حملته اللّغوية وأبعاده الإيديولوجية.

يعمل "إدوارد سعيد" إذن على تحديد نطاق الإستشراق وذلك بالوقوف على بعض المفاهيم الأساسية التي شكّلت الخطاب الإستشراقي، مثل: مفاهيم الشرق والغرب. ويعمل على تحديد أبنية الإستشراق وإعادة بنائها، فيقف عند نماذج من الخطاب الإستشراقي مفكّكا بنياته الأساسية. ويقدم الخصائص العامة لقراءة الغربيين للشرق، ويبين كيف أنّ المستشرقين أعادوا رسم الحدود وتعريف القضايا ويحلّل أعمال بعض المستشرقين. بالإضافة إلى مقارنته الرّحلة في الخطاب الإستشراقي. كما يعمل على تحديد البعد الدّنيوي للإستشراق وذلك بربط النصوص بواقعها التاريخي والاجتماعي.

وإذا كان "سعيد" يعرف الإستشراق بكونه: "تحليل العلاقة القائمة بين القوة والمعرفة وأداء الخطاب الإستشراقي العام لوظيفة تعبوية وسياسية وتخيلية خدمت السياسات الإستعمارية وشكّلت جزءاً لا يتجزأ من مناخات صعود الإمبريالية" (سعيد إدوارد، 1995: 26). فهذا يعني أنّه يسعى في كتابه: "الإستشراق" إلى تحليل العلاقات القائمة بين الشرق والغرب من قوة وفرض للسيطرة على الشرق تارة، وإدعاء نشر العلم والمعرفة تارة أخرى. إضافة إلى الخطابات الإستشراقية وما لعبته من دور في خدمة المصالح الإستعمارية وتنامي الإمبريالية. ففي هذا يقول: "... نحلّل الإستشراق والتّعامل معه واعتماد آراء معيّنة عنه ووصفه، وتسوية الأوضاع فيه والسيطرة عليه: وباختصار الإستشراق أسلوب غربي للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه والتسلّط عليه" (سعيد إدوارد، 1995: 45، 46)، فهو نوع من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة حكم الغرب للشرق. إذن، ليس الإستشراق فقط مشروعاً ثقافياً أوروبياً (بريطاني أو فرنسي) كما يبدو ظاهرياً، وإنما تعدّى إلى مشاريع أخرى خفية متمثلة في فرض السيطرة على الشرق.

ولا يهدف "إدوارد سعيد" من دراسته للإستشراق الكشف عن مصادره فقط، بل إنّّه يتجاوز ذلك إلى أهمّيته وإلى إظهار الجوانب الخفية منها والمعلنة من الدراسات التي يقدم بها الغرب تجاه الشرق. تتمثل المعلنة في تحقيق التطوّر ونشر المعرفة. أما الخفية منها، فقد قدّم الأدلّة على أنّ النظرة تحقيق المطامع والمكاسب ليست كما يظهرها الغرب في مختلف السياسات التي ينتهجها إزاء الشرق بل هي كلّها تعتبر أطماعاً استعمارية تتمثّل في طلب السلطان.

(سعيد)

(إدوارد، 1995: 18، 19)

إنّ قراءة "سعيد" للإستشراق تحمل بعداً سياسياً يهدف إلى فضح السلطة الغربية التي تخدم مركزية الغرب، هذه السلطوية يقرنها "سعيد" بالإستشراق تولدت عن روح الهيمنة والإستعمار والإمبريالية، وهو الثلاثي الذي شكّل الولادة الحقيقية للإستشراق. وهذا ما يحيل إلى علاقة قوة وسيطرة تربط الغرب بالشرق وفقاً لما تعكسه المعطيات التاريخية، فالشرق لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوروبية. والإستشراق يعبر عن هذا الجانب ويمثله ثقافياً وفكرياً باعتبار الإستشراق أسلوباً للخطاب.

ومن بين أهداف الإستشراق أيضاً هو تقديم صورة محدّدة عن الشرق، والمقولة التالية تؤكد لنا ذلك:

"الشرق الذي يتجلّى في الإستشراق، إذن، هو نظام من التمثيلات مؤطر بطاقم كامل من القوى التي قادت الشرق إلى مجال المعرفة الغربية والوعي الغربي... وإذا كان هذا التّحديد سياسياً أكثر منه أي شيء آخر، فذلك ببساطة لأنني أؤمن بأنّ الإستشراق كان هو نفسه نتاجاً لقوى ونشاطات سياسية معيّنة. فالإستشراق مدرسة للتفسير حدث وأن كانت مادتها الشرق بحضارته وشعوبه... فالإستشراق ليس مجرد مذهب إيجابى حول الشرق يوجد في وقت واحد محدّد في الغرب". (سعيد إدوارد، 2005: 201)

4: المنهج في دراسة الإستشراق.

ينطلق "إدوارد سعيد" من مناهج البحث العلمي في العلوم الإنسانية وهو منهج النقد الأدبي الذي استطاع به في كتابه: "الإستشراق" أن يخاطب الغرب بلغته وبمنهجه العلمي الحديث، فكشف الغطاء عما يتخفى بقناع الثقافة والدراسة العلمية من مواقف سياسية لا ترمي إلا إلى تحقيق مطامع ومصالح مادته الصرفة.

إنّه منهج علمي طبقه "سعيد" على الخطاب الإستشراقي، والذي أخذه عن غامباتيسا فيكو، يظهر ذلك في اهتمامه بقضية التصوير التمثيلي، فهو يصرّح بتطبيق هذا المنهج: "...لأنّه يمثل التطبيق الكامل، والعلمي الدقيق للمذهب التكاملي الدينامي الذي اكتشفه عند فيكو، حيث يثبت علاقة الثقافة بكل ما ينتج من أفكار وآداب إنسانية في بلد ما وفي عصر ما". (سعيد إدوارد، 2005: 28)

كما يوظف منهج النقد الإنساني لأجل التحليل الموضوعي لا إصدار أحكام إيديولوجية-عاطفية. وفي هذا يقول: "فكرتي في الإستشراق هي استخدام النقد الإنساني لتهديد السبيل إلى مجالات جديدة من الصراع وتقديم تسلسل أطول من التفكير والتحليل نستبدل به تلك النوبات القصيرة من الغضب الجدلي المانع للفكر الذي يحبسنا داخله" (سعيد إدوارد، 2011: 15، 16). فهو يعني بالإنسانية محاولة فك القيود التي يصطنعها العقل، حتى يمكن للمرء أن يستخدم عقله بشكل تاريخي وعقلاني بغرض الفهم المتأمل والكشف الأصيل. وما يدعم الإنسانية حسب رؤية "سعيد" هو حس الجماعة مع المفسرين الآخرين والمجتمعات والفترات التاريخية الأخرى، وبشكل دقيق، ليس ثمة وجود للإنساني المنعزل.

هذا، وتظهر نزعة "إدوارد سعيد" الإنسانية من خلال الجمع بين الثقافة وبنية السياسة عند دراسته لبنية الإستشراق.

وبما أنّ الإستشراق عند "إدوارد سعيد" ليس مجرد موضوع أو مجموعة كبيرة غير مترابطة من النصوص المكتوبة بل هو: "الوعي الجغرافي السياسي الميثوث في النصوص العلمية والاقتصادية والاجتماعية واللغوية" (سعيد إدوارد، 2005: 58)، فإنه اعتمد على مجموعة من النصوص: الشعرية والرحلية والأدبية خاصة.

فمن وسائله المنهجية لدراسة السلطة، هي التشكيل الإستراتيجي الذي يعني به: "طريقة تحليل العلاقة فيما بين النصوص، والوسيلة التي تتمكّن بها مجموعة من النصوص، أو أنماط النصوص، بل وأجناس النصوص من اكتساب الصلابة والكثافة والقوة المرجعية فيما بينها" (سعيد إدوارد، 2005: 68، 69). كما اهتمّ بالأعمال العلمية والسياسية والأدبية وكتب رحلات وغيرها، ففي ذلك يقول: "إنني أعتزم ألا أقصر في دراستي على بحوث العلماء، بل أن أفحص أيضا أعمالا أدبية، وكتابات سياسية، ونصوصا صحفية، وكتب رحلات ودراسات دينية ولغوية" (سعيد إدوارد، 2005: 73). وهي نصوص ترتبط بالواقع (الدنيوية)، حيث يقول: "النصوص دنيوية وهي أحداث إلى حدّ ما، وهي فوق كلّ هذا، وذلك، قسط من العالم الاجتماعي والحياة البشرية، وقسط من اللحظات التاريخية التي احتلت مكانها فيها وفسرتها حتى حين يبدو عليها التذكّر لذلك كلّ" (سعيد إدوارد 2000: 07). ولكّنه في حقيقتها هي نصوص تعكس رؤية هيمنة الغرب على الشرق.

إنّ الحديث عن المنهج، يستدعي منا الحديث عن المفاهيم التي وظّفها "إدوارد سعيد" في نقده الخطاب الإستشراقي، وهي: الإستشراق، المستشرقون، الهيمنة، الخطاب، الشرق والغرب، والدنيوية. وهذا ما سنوضحه في العناصر التالية:-

4-1: المستشرقون:

وهم الذين تطلق عليهم صفة: "كلّ من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه ويسمّى فعله استشرافا، وهو أسلوب من الفكر القائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الشرق الرّوحي والغرب العقلي. كما هو أسلوب سياسي وإداري غربي للسيطرة على الشرق" (سعيد إدوارد، 2005: 52). وعليه، فالمستشرق هو كلّ من يعمل على دراسة الشرق أو الكتابة عنه، فيتّصل به مختلف الجوانب الخاصة بالشرق. من هؤلاء المستشرقين: سلفستر دي ساسي **Silvestre de Sacy** (1758-1838) وإرنست رينان **Ernest Renan** (1823-1892م).

4-2: الهيمنة:

وهي سيطرة الدّول الكبرى (الغرب) على الدّول الصغرى (الشرق) اقتصاديا وسياسيا وثقافيا. وهو مفهوم لا غنى عنه في إدراك حقيقة الحياة الثقافية في البلدان الصناعية في الغرب، ففي نظر "سعيد" على حدّ تعبيره: "كانت الهيمنة، أو قل النتيجة العلمية المترتبة على الهيمنة الثقافية أن كتبت للإستشراق استمراره وقوّته" (سعيد إدوارد، 2005: 51). ومن صور هيمنته الغرب على العرب (الشرق) ثقافيا أنه متخلف.

4-3: الخطاب:

هو ملفوظ أو مجموعة ملفوظات طويلة كانت أم قصيرة، وهو عبارة عن جمل متتالية. وبما أنّ الإستشراق أسلوب غربي يهدف إلى السيطرة على الشرق وإعادة هيكلته وفق تطوّره من خلال فعل التسلّط التي تخفيها الخطابات الإستشراقية كما بيّنا من قبل، فإنّ "إدوارد سعيد" يرى بأنّ: "الإستشراق خطاب منظم وهذا يقضي بالضرورة إلى كونه معرفة مدوّنة أو مكتوبة". (سعاد طيبلاوي، 2015)

4-4: الشرق والغرب:

يرى "إدوارد سعيد" أنّ الشرق والغرب كيانان جغرافيان، يقع الأول منهما في الشرق للكرة الأرضية، في حين يقع الثاني في غربها. ويتمتع كلّ كيان بتاريخ وحضارة وعادات وآداب، ولغات خاصة به يختلف فيها أحدهما عن الآخر. يؤكد على ذلك بقوله: "توجد ثقافات وأمم تقع جغرافيا في الشرق، وكلّ منها له حياة وتاريخ وعادات تتسم بواقع صلب أعظم من كلّ ما يمكن أن يقال تعبيراً عنه في الغرب". (سعيد إدوارد، 2005: 48)

وينطلق "إدوارد سعيد" في دراسته للإستشراق وهو يوظف مفهومي الشرق والغرب من أنّه يفترض وجودهما ككيانين مختلفين من الناحية الجغرافية والثقافية، ومع ذلك فهما متداخلان في الخطاب الإستشراقي، "فبما أنّ الشرق كيان جغرافي ثقافي تاريخي، فإتّاه يمثل فكرة لها تقاليد فكرية، وصور بلاغية، ومفردات جعلتها واقعا له حضور في الغرب". (سعيد إدوارد، 2005: 48)، حيث يقول: "ليس الشرق وحسب مجاوراً لأروبا، بل إنّ موقع أعظم وأغنى وأقدم المستعمرات، وهو مصدر حضارتها ولغاتها، ومنافسها الثقافي...، أضف إلى ذلك أنّ الشرق قد ساعد في تحديد صورة الغرب... كما أنّه جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافية الأوروبية" (سعيد إدوارد، 2005: 43، 44). وتعتبر العلاقة بين الشرق والغرب قائمة على أساس الهيمنة والسيطرة.

فمن الأسس التي يستند إليها في قراءته لبنية الإستشراق التّمييز بين الشرق والغرب، فالعلاقة بينهما يجب أن تدرس بوصفها علاقة قوة وهيمنة، فالشرق تمّت شرقته من قبل الغرب، حيث يذهب "سعيد" إلى أنّ الغرب هو الذي حدّد وفصل ومايز بين بنيتين تمّ تعريفهما على أنّهما شرق وغرب، ففي افتتاحية كتابه: "الإستشراق"، يقتطف مقولة لكارل ماركس Karl Marx (1818-1883م) الذي يقول عن الشرقيين: "إنّهم لا يستطيعون أن يمثلوا أنفسهم، إنّهم يجب أن يمثلوا" (سعيد إدوارد، 2005: 83، 84)، فالشرق بالمنظور الغربي عاجز عن أن يحكم على نفسه بنفسه، وهو عاجز عن أن يتحدّث عن نفسه بنفسه، وذلك لقصر عقله ودونية عرقه. لذلك، فالشرق بحاجة إلى مساعدة لتمثيل وحكم نفسه بنفسه وهذا بمساعدة الغرب.

ويريد "إدوارد سعيد" بنقده الخطاب الإستشراقي زعزعة كيان مركزية الغرب ودونية الشرق. فعن قراءته لجيمس آرثر بلفور Arthur James Balfour (1848-1930) مثلاً ينتهي إلى أنّ المحورين الذين تدور حولهما ملاحظات بلفور هما المعرفة والسلطة: "فعندما يبرّر بلفور صورة الاحتلال البريطاني لمصر، فهذه مرتبطة في تفكيره بالمعرفة، لا بالقوة العسكرية أو الاقتصادية. وتعني المعرفة لبلفور استقصاء مسار حضارة ما من

نشأتها إلى ازدهارها وصولاً إلى ذبولها وأفولها، وأنّ موضوع معرفة الشرقي، معرض للفحص الدقيق لضعف في طبيعته، وهذا الموضوع يعتبر حقيقة ثابتة". (سعيد إدوارد، 2005: 86)

هذا، وتشير دراسات الإستشراق إلى الشرق الذي هو "نتاج الجغرافيا الخيالية لأولئك الناس الذين جاؤوا لمعرفة أنفسهم وثقافتهم، وأراضيهم كالأوروبيين وكالغرب أيضاً" (سعيد إدوارد، 2005: 86)، إلا أنّ ما يتّصف به الغرب هو أنّهم: عقلانيون، مسالمون، متحرّرون، منطقيون، وقادرون على الإمساك بقيم حقيقية، بينما تنعدم هذه الصفات لدى الشرقيين الذين ينتفي عنهم الاستدلال والتناسق والإتقان.

4-5: الدنيوية:

تتّصل الدنيوية في فكر "إدوارد سعيد" بمفهوم القرب والبعد. ويطلق مصطلح الدنيوية على كلّ الأشياء ومختلف الكلمات الموجودة في هذا العالم (الدنيا). ويحدّر من وجود الاهتمام بالنصوص لذاتها ولحد ذاتها، حيث يقول: "... هذه التّعاملات هي الشيء الذي كنت أدعوه بالدنيوية، ولكن شغلي الشاغل هنا ليس الموضوع الجمالي عموماً، وإنما النص على وجه التخصيص" (سعيد إدوارد، 2000: 34، 35). وهذه الدنيوية قائمة في نظر "سعيد" في تلك العلاقات القائمة بين النصوص والواقع السياسي الذي تنتجه، وهي ترد أيضاً كاستراتيجية نقدية وثقافية تسعى إلى وضع النقد في العالم السياسي والاقتصادي والاجتماعي، أي في قلب العالم الذي تنتجه، عبر نزعة مقاومة لشقوق الواقع وترديّه من جهة، ومقاومة المركزية الغربية التي تحوّلت إلى أصولية ثقافية من جهة أخرى.

إنّ المقصود بالدنيوية كخاصية تقال على الإستشراق هو مدى خضوع المستشرقين لشروط الواقع الموضوعي والظروف الدنيوية التي تكتنفهم ومدى خضوعهم لشروط العيش في هذا العالم الطبيعي ودعواهم بأنّهم تجريبيون وعلميون وغير خاضعين لفكر ديني أو لتصورات غربية في رسم صورة الشرق وتمثيله في أذهانهم وكتاباتهم. فالدنيوية إذن أو العلمانية تتّصل بالواقعية وبالإنسانية وبالواقع التاريخي في نصوص الإستشراق حسب رؤية "سعيد".

5: مفهوم الإستشراق:

يقصد "إدوارد سعيد" بالإستشراق عدّة معاني يرتبط بعضها ببعض، حيث يعني به: "أنّه مبحث أكاديمي" (سعيد إدوارد، 1995: 44). وهذا يعني أنّه يستخدم في المؤسسات الأكاديمية. كما يعتبره "أسلوباً للخطاب، أي التفكير والكلام تدعّمه مؤسسات ومفردات وبحوث علمية، وصور ومذاهب فكرية، بل وبيروقراطيات استعمارية وأساليب استعمارية" (سعيد إدوارد، 1995: 44)، أي أنّ الإستشراق خطاب تدعّمه مجموعة من الوسائل والأعمال والمذاهب، يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين الشرق والغرب. ويعرّفه أيضاً بأنّه: "التّفاهم مع الشرق بأسلوب قائم على المكانة الخاصة التي يشغلها هذا الشرق في الخبرة الأوروبية الغربية" (سعيد إدوارد، 1995: 43). هذا الشرق يحتلّ مكانة خاصة بالنسبة إلى الغرب من نواحي عدة منها: الاقتصادية والسياسية.

كما أنّ للإستشراق معنى أعم وأشمل، فهو: "أسلوب للتفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمّى "الشرق" وبين ما يسمى في معظم الأحيان الغرب". (سعيد إدوارد، 1995: 45)

وهكذا، "فإنّ عددا من الكتاب من بينهم شعراء وروائيين، وفلاسفة وأصحاب نظريات للسياسة وغيرهم قبلوا التمييز بين الشرق والغرب باعتباره نقطة انطلاق لوضع نظريات مفصلة، وكتابة روايات، وإقامة دراسات سياسية عن الشرق" (سعيد إدوارد، 1995: 45). مثلما هو الحال مع أعمال ألفونس دو لامارتين **Lamartine de Alfance** (1790 - 1869م) وجيرارد دي نورفال **Gérard de Nerval** (1808-1855م) وفلوبير.

لقد وظّف "سعيد" العديد من الكتابات الاستشراقية في صفحات كتابه منذ القرن الثامن عشر إلى المرحلة التاريخية المعاصرة، مثل كتابات: آرثر بلفور وموضوعه "وصف مصر" وروايات فلوبيير، لكي يبرهن على علاقة القوة والهيمنة بكتاب الإستشراق، وليثبت أنّ تشكل المعرفة مصحوبة بالقوة العسكرية والسياسية، ليقتبل باستعلاء واستعباد الغرب له.

ويعتبر الإستشراق في تصوّر "سعيد" أيضا مشروعا ثقافيا بريطاني وفرنسي المنشأ، له أبعادا متعدّدة. كما يضمّ مختلف الأصقاع بحيث يشمل الهند وبلاد الشام، والجيش الإستعماري والمناهج والمواد الدراسية. ويشمل مجموعة متنوعة ومركّبة من الأفكار عن الشرق، ومنها: الإستبداد الشرقي، بهاء الشرق وروعته، ونزوعه للقسوة وغيرها من الأفكار. (سعيد إدوارد، 1995: 47)

أما المعنى الثالث للإستشراق، و"هو معنى يستند في تعريفه إلى عناصر تاريخية ومادية أكثر ممّا يستند المعنيان الآخران، فإذا اعتبرنا أواخر القرن الثامن عشر نقطة عامة إلى حد بعيد استطعنا أن نناقش ونحلّل الإستشراق بصفته المؤسسة الجماعية للتعامل مع الشرق- والتعامل معه معناه التحدّث عنه واعتماد آراء معيّنة عنه ووصفه وتدرّسه للطلاب، وتسوية الأوضاع فيه، والسيطرة عليه. وباختصار بصفة الإستشراق أسلوبا غربيا للهيمنة على الشرق، وإعادة بنائه، والتسلّط عليه". (سعيد إدوارد، 1995: 46)

معنى هذا، أنّ الإستشراق لا يتوقّف عند حدّ الدراسات الأكاديمية أو عند المنظور المختلف للثقافة وللحضارة، بل يتوقّف عند أسلوب السيطرة والقوة والهيمنة الناتجة عن الإستشراق، أي عند الدوافع البعيدة من ورائه والتي تتعدّى كونها فعلا معرفيا إلى فرض منطق السيطرة في المجال السياسي والاقتصادي والحضاري.

يحدّد "إدوارد سعيد" إذن ثلاثة معاني للإستشراق: المعنى الأكاديمي-المعنى الخيالي- والمعنى الخاص بهيمنة الغرب على الشرق، أي الإستشراق بوصفه معرفة ملازمة للقوة الغربية وهيمنتها الإستعمارية.

وعليه، تتقاطع هذه المفاهيم الثلاثة حول الإستشراق في منظور واحد، وهو أنّ الإستشراق يمثل دراسة الغرب لثقافة الشرق، أو كلّ ما يؤسّس له الخطاب الغربي حول الشرق سواء في مجال المعرفة أو السياسة.

هذا، وينظر "إدوارد سعيد" لماهية الإستشراق نظرة إبيستيمولوجية، فهو علم مستقلّ له موضوعه ومنهجه ودراساته الخاصة، وهو لم يتشكّل بطريقة مباشرة، بل كان نتيجة اهتمامات تاريخية، لأنّ لفظ الإستشراق بدأ كصفة للعالم الشرقي من ناحية اللغة، وكموضوع للعالم الشرقي (دراسة الشرق كموضوع على مستوى الفكر)، ثمّ انتقل إلى أن أصبح واقعا يتصوّره ويتخيّله الغرب، يكتسب صفة الواقعية أو مجموعة الصفات التي أطلقها الغرب على العالم الشرقي.

إنّ منظومة "سعيد" النقدية للإستشراق، ترمي إلى إبراز الطابع التخيلي في اختلاق الغرب للشرق وجوديا ومعرفيا، فالشرق الإستشراقي-مشرق وجوديا- ينبع من تقسيم جغرافي يفترق للدقة وهو مخالف للواقع الجغرافي الفعلي. أما معرفيا فقد عوّن الشرق كحامل لكل العيوب الممكنة، فكان موضوعا لإطلاق أحكام عمومية غير موضوعية.

هكذا، ينتقل الإستشراق من مستوى اللغة والفكر إلى مستوى الواقع والفعل، وهو تلك الصورة التي تثبتها الغرب في مجال الدراسات الأكاديمية حول العالم الشرقي، حيث تمّ تنميط الثقافة الشرقية في قالب واحد وفي صورة واحدة على الرّغم من الاختلاف والتعدّد الموجود في العالم الشرقي من لغات وعادات وتقاليد وديانات.

فما يرفضه "إدوارد سعيد" بنزعه النقدية هاته من الخطاب الإستشراقي هو النظرة الثابتة للشرق، باعتباره جوهرًا ثابتًا لا يتغيّر، بل إنّ الشرق كما يتصوّره له ديناميكيته الخاصة، تاريخه، وثقافته الخاصة. ولكن الشرق في الخطاب الإستشراقي ينفي عنه التغيّر والارتباط بطروف تاريخية وثقافية خاصة به، وهي نظرة إيديولوجية يقدّمها الخطاب الإستشراقي عن الشرق وليست نظرة تاريخية وعلمية له كما يرى "سعيد".

إنّنا نجد "إدوارد سعيد" يصف الخطاب الإستشراقي بالثبات وبالجمود في قوله: "وتعتبر جوانب قصور الإستشراق هي نفسها جوانب القصور الناجمة عن تجاهل إنسانية ثقافة أخرى أو شعب آخر أو منطقة جغرافية ما، واختزالها إلى "جوهر" ما، وتجريدها من صفتها. ولكن الإستشراق قد خطا خطوة أبعد من ذلك فهو يرى أنّ الشرق يقتصر وجوده على ما "يشاهد"، بل إنّ ظلّ ثابتا في الزمان والمكان بالنسبة للغرب" (سعيد إدوارد، 1995: 129)، لأنّ الخطاب الإستشراقي بهذا الشكل حلّ محلّ ثقافة أخرى ووضع نفسه في موقع الممثل الرّسمي لمجتمعات ولشعوب لا ينتمي إليها من حيث الأصل، أو من حيث الثقافة والتاريخ. وقد مثل الشرق في المخيال الغربي الإستشراقي الموضوع الثابت والجامد الذي يمكن تطويعه بأيّة طريقة أو منهجية كانت لكي يكون طيّعا وقابلا للدراسة العلمية والمعرفية ومن أجل إحكام النفوذ السياسي عليه.

وبهذا، لا يكون الخطاب الإستشراقي في تصوّر "إدوارد سعيد" خطابا علميا موضوعيا حول ثقافة الشرق، حيث يتّخذ من هذا الأخير موضوعا للدراسة بعيدا عن الافتراضات وعن الأحكام المسبقة في بنية العقل الغربي، بقدر ما هو خطاب القوة والهيمنة الثقافية والسياسية، فهذا ما يخفيه في بنيته اللاشعورية. وفي هذا يقول: "وأنا أعتقد شخصا أنّ القيمة الكبرى للإستشراق تكمن في كونه دليلا على السيطرة الأوروبية الأمريكية على الشرق أكثر من كونه خطابا صادقا حول الشرق، وهو ما يزعم الإستشراق في صورته الأكاديمية والبحثية". (سعيد إدوارد، 1995: 50)

لقد مارس "إدوارد سعيد" النقد الثقافي على الخطاب الإستعماري الغربي، حيث انتقد الخطاب الإستشراقي المهيمن إيديولوجيا من خلال الكشف عن العلاقة الغير متكافئة بين المعرفة والقوة أو الخطاب والسلطة. وكان يهدف إلى تحليل النصوص من خلال قراءات عميقة تكشف عن الجدلية الدائرة بين النص أو المؤلف الفرد من ناحية وبين التشكيل الجماعي المركّب الذي يشارك فيه عمل المؤلف من جهة أخرى.

وكان يهدف إلى تحليل الإستشراق كخطاب، فقد عمل على فضح الطابع التسلطي للخطابات الإستشراقية وتوسّعها لدائرة انتشارها. وهذا ما سيّضح لنا من خلال رؤيته لبنية الإستشراق.

6: بنية الإستشراق.

إنّنا نجد "إدوارد سعيد" يركّز في الفصل الثاني من كتابه: "الإستشراق" على تتبّع المراحل المبكرة لما يسمّيه بالإستشراق الحديث، فحتى القرن الثامن عشر استمرّ الإستشراق ينطلق من أسباب دينية في تحليله للشرق الإسلامي وفي الحكم عليه. لأنه خلال مرحلتي القرون الوسطى وعصر النهضة، كان الإسلام بالنسبة إلى المستشرقين هو الشرق الجوهري الذي يتهدّد المسيحية. ويرجع "سعيد" هذا التحوّل الذي طرّق على الإستشراق إلى عناصر أربعة أثّرت في تحوّل الإستشراق من طابعه الديني المسيحي إلى إستشراق علماني. فهذه العناصر مهّدت الطريق إلى بروز الإستشراق الحديث الذي عبّرت عنه مختلف الاتجاهات الفكرية في القرن التاسع عشر. وهي: التوسّع الشرقي-المجابهة التاريخية- التلبس المتعاطف-والتنميط.

1-6: التوسّع الشرقي:

إنّّه نتيجة للاستكشافات الأوروبية المستمرة والمتزايدة بفضل السيطرة الاستعمارية المباشرة، اتّسع الشرق جغرافيا، متجاوزا نطاق العالم العربي والإسلامي. إلى جانب ازدهار تجارب أوروبية ذات صلة بالإستشراق، كأدب الرّحلات والمغامرات والأسفار البحرية وتنامي التقارير العلمية والأثرية وغيرها. والنتيجة المترتبة عن ذلك، هي نقل الشرق معرفيا من موضعه الديني والاحتكار الكنسي، حيث لم يعد الشرق الجوهري هو الإسلام فحسب، بل تعدّاه ليشمل أقاليم جغرافية وشعوبا أخرى، كالهند والصين واليابان، ليشمل أيضا البوذية والسانسكريدية والزرادشتية والمانوية وغيرها من الديانات. ولكن هذا التوسّع في نظر "سعيد" لم يصحبه تغيير في استراتيجيات الغرب وفي تعامله مع الآخر، بل أدّى هذا التوسع إلى

عكس ذلك، إلى "أن تضع أوروبا بثبات في المركز الإمتيازي، بصفتها المراقب الرئيسي" (سعيد إدوارد، 2005: 140) الذي يخضع الآخر تحت السيطرة والاستعمار.

2-6: المجابهة التاريخية:

يرى "إدوارد سعيد" أن مؤرخي القرن الثامن عشر قاربوا الشرق بكيفية مغايرة لمقاربة مؤرخي عصر النهضة له "فبينما اعتبر مؤرخوا عصر النهضة الشرق بتصلب حاد عدواً، فإن مؤرخي القرن الثامن عشر واجهوا شواذات الشرق بشيء من الانفصالية والتجرد، وبيعض من محاولة التعامل المباشر مع المصادر الشرقية الأصيلة" (سعيد إدوارد، 2005: 141). مثلما هو الحال مع تعامل المؤرخ إدوارد جيبون **Edward Gibbon** (1737-1794م) مع محمد ص- لا بوصفه كافراً أو المسيح الدجال، بل باعتباره شخصية تاريخية تركت أثرها على الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي على السواء.

3-6: التلبس المتعاطف:

إنّ النزعة التاريخانية التي ظهرت في القرن الثامن عشر مع مؤرخيها مثل: يوهان هررد **Johann Herder** (1744-1803م) وجورج هامان **Georg Hamann** (1730-1788م)، والذين آمنوا بأنّ الثقافات جميعاً متواشجة بروح أو عبقرية أو فكرة قومية لا يستطيع خارجي أن ينفذ إليها إلا عبر التعاطف التاريخي، عبّرت عن التحوّل في الإستشراق من طابعه الديني الكنسي إلى الإستشراق المعلمن، حيث إحلال التعاطف المتفهم محل المجاهرة بالتحيز ضد الآخر.

4-6: التتميط:

يشير "إدوارد سعيد" إلى أنّه ظهرت في القرن الثامن عشر تيارات فكرية متأثرة بالاكتشافات العلمية البيولوجية، شدّها النزوع إلى تصنيف الطبيعة والبشر في أنماط ورتب، حيث أصبحت الشخصية تفسّر ضمن تصنيفات لها خصائص فيزيولوجية وأخلاقية وسلوكية، فالأمريكي مثلاً أحمر سريع الغضب منتصب، والإفريقي أسود خامل لا مبال. وهكذا طغى التمايز في العرق واللون والأصل والمزاج على التمايز بين المسيحيين وغيرهم منهم المسلمين.

ولكنّه، على الرّغم من التحوّل التاريخي والفكري الذي حصل في بنية الإستشراق، إلّا أنّ البنية واحدة في تصوّر "سعيد" الذي يقول: "لكن لنن كانت هذه العناصر المتداخلة المترابطة تمثل اتجاها معلّماً، فإنّ ذلك لا يعني القول بأنّ الأنساق الدينية القديمة أزيلت، هيهات، بل إنّّه قد أعيد تركيبها وموضعها وتوزيعها ضمن الأطر العلمانية التي عدّت قبل قليل". (سعيد إدوارد، 2005: 143)

إنّ الإستشراق الحديث لا يختلف عن الإستشراق القديم في نظر "سعيد" بشكل مطلق، فهو لم يتخلّص من النظرة الذاتية التي شكّلت تاريخه، إنّها السّمة الجوهرية له. والشّيء الجديد الذي أضفاه الإستشراق الحديث والمعاصر هو توسيع دائرة الهيمنة والسلطة الغربية على شعوب العالم الشرقي. فلا يوجد خطاب إستشراقي يخلو من التأثيرات الذاتية والإيديولوجية للباحث المستشرق الذي "يتصدّى للشرق باعتباره أوروبيا وأمريكا أولا، وباعتباره فردا ثانيا وكونه أوروبيا أو أمريكيا في مثل هذا الموقف لا يمكن أن يكون حقيقة خادمة". (سعيد إدوارد، 2005: 57)

ويرى "إدوارد سعيد" في دراسته للإستشراق الحديث، أنّ هذا الأخير له إسهام في الإستشراق من خلال نظريته وعمله لا باعتبارها "معرفة موضوعية أصبحت متاحة فجأة عن الشرق، بل باعتبارها مجموعة من الأبنية الموروثة من الماضي بعد أن قامت بعض المباحث العلمية مثل: فقه اللغة بإكسابها صفة علمانية وإعادة تنظيمها وتشكيلها" (سعيد إدوارد، 2005: 210)، مثلما هو الحال مع دراسات أرنست رينان الإسلامية، حيث طبّق منهج فقه اللغة. ولكن دراساته تميّزت بالإيديولوجيا وليس بالعلمية وبالموضوعية، خاصة وأنّه نظر إلى الثقافة الإسلامية باعتبارها ثقافة يونانية كتبت بلغة عربية.

ويعدّ كلّ من "سلفستردى ساسي" و"أرنست رينان" من أهمّ المستشرقين في نظر "سعيد" في مرحلة العصر الحديث، حيث يقول: "ساسى أب الإستشراق، والمفتّح المدرك لذاته، الذي خلق القواعد الإيبستيمولوجية الأساسية، التي كانت تحكم سلوك المستشرقين،... فإنّ رينان كان المستشرق الكبير الذي بدت قوته الثقافية غير قابلة لاختزال شخصيته أو أفكاره". (سعيد إدوارد، 2005: 220، 221)

هذا، وقد كان للحجّاج البريطانيين والفرنسيين وللرحلات التي قاموا بها إلى الشرق أهميّة في دراسة "سعيد"، نظرا لما لهم من إسهامات كبيرة في معرفة الشرق وحقيقته وبأهداف متعدّدة، فقد كان "كلّ حاج أو زائر للشرق يرى للشرق الأشياء من زوايته الخاصة، ولكن هناك حدودا لما يمكن أن ترمي إليه رحلة الحج، وللشكل أو الهيمنة التي يمكن أن تتخذها، وللحقائق التي يمكنها الكشف عنها" (سعيد إدوارد، 2005: 273). مثلما هو الحال مع المسافرين الأفراد من بريطانيا الذي يعتبر الهند هي الشرق لأنّها من ممتلكات بريطانيا. إذن، إنّ كتابات الحجّاج عن الشرق هي عبارة عن حقائق لا تمت للحقيقة بأيّة صلة.

يتصوّر "إدوارد سعيد" إذن أنّ الإستشراق يمثّل بنية سياسية وثقافية، فهو بنية سياسية من حيث أنّه رغم اعتماده على الجهود الفردية المتناثرة هنا وهناك، إلّا أنّ هؤلاء المستشرقين حينما يذهبون لدراسة المستعمرات الشرقية المستعمرة من قبل بلدانهم، فهم في هذه الحالة لا يذهبون بصفتهم الفردية، قدر ما يحملون معهم هويّاتهم الخاصة بهم، فالمستشرق الأمريكي مثلا لا يذهب بصفته فردا أو باحثا في شؤون بلد ما، قدر ما يذهب وهو مستدمج لهويّاته الأمريكية في ثقافة الشرق. إذن، فالمستشرق غير محايد وغير موضوعي في دراسته لهذه الثقافة.

-الخاتمة: تقييم ونقد.

ما نستنتجه ممّا سبق ذكره، أنّ "إدوارد سعيد" لم ينتقد الإستشراق في حدّ ذاته، بل انتقد خطاب الإستشراق، فهو لم يتوقّف نقده عند إبراز الآليات الخطابية والبنى المعرفية للإستشراق، بل فضح تحييز المعرفة/الخطاب للمشروعين الكولونيالي والإمبريالي. وقد نبّهنا من خلال كتابه: "الإستشراق" إلى أنّ جوهر الإستشراق ليس هو دراسة الشرق، بل هو إعادة صناعته من جديد، من هنا جاء مصطلح الشرقة ليفضح الآليات الخطابية للإستشراق، وهو بذلك يعبر عن رؤية نقدية إبستمولوجية. لقد كان أمام صورة مختلفة عن الشرق، تشكّلت منذ قرون داخل المخيلة الأوروبية، وجاء الإستشراق ليضع هذه الصورة داخل نظام معرفي ومنهجي جدّ محكم.

إنّ دراسة "إدوارد سعيد" لموضوع الإستشراق لا تقف عند حدود النصّ ذاته محاولاً فهم النصّ من داخله أو البحث عن اللامفكر فيه في النصّ، بل هو يبحث في علاقة النصّ بما هو خارج عنه، أي موقعه من الخارج، عن ماذا يتكلّم؟ موضوعه؟ ولمن يكتب؟ وما هو السبب الكامن وراء الكتابة حوله؟ وما هي الفكرة التي يريد ترسيخها؟ لهذا، ينظر "سعيد" إلى أثر النصّ الإستشراقي وعلاقته بالزمن والتاريخ أكثر من الوقوف عند حدود النصّ ذاته في وحدته وانسجامه الداخلي. فهو ينقل إذن الإستشراق من مستوى النصّ (مجالات الدراسة) إلى مستوى الخطاب الذي يحكم بنية هذا النصّ.

لكن، هل كانت قراءة "سعيد" للخطاب الإستشراقي قراءة علمية موضوعية منزّهة عن التأثير الذاتي والإيديولوجي؟

لقد بيّنت الكتابة في موضوع الإستشراق تحقيق هدفين: كتابة للغرب المستشرق من خلال نظرة المستشرقين الغير موضوعية حول الشرق والكشف عن امتداداتها الإيديولوجية من جهة، ومن جهة أخرى كتابة تعبر عن الهوية والأصل والتاريخ المشترك الذي يتقاسمه أبناء العالم الشرقي. تظهر لنا هنا النزعة الذاتية والقومية العربية "لإدوارد سعيد" القائل: "أنا شرقي يريد كتابة على المستشرقين الذين ازدهروا لفترة طويلة بسبب صمتنا. أكتب لهم، من خلال تفكيك بنية مادّتهم العلمية من خلال الكشف عن تحييزها الماورائي التاريخي، والمؤسّساتي، والإيديولوجي والمعادي للتجريبية. أخيراً، أشعر أنّي أكتب لأبناء وطني وزملائي حول أمور ذات اهتمام مشترك". (سعيد إدوارد، 2008: 62)

لقد اهتمّ "إدوارد سعيد" بالتحليل النقدي للخطاب الإستشراقي الفرنسي والإنجليزي والبريطاني، أكثر من اهتمامه بتحليل الإستشراق الإيطالي والروسي. وهذا في نظرنا اهتمام ذاتي تحدّد خاصة في فضح الإستشراق الذي مثّله المؤسسات الأكاديمية بالمجتمع الأمريكي الذي درس ودّرّس فيه.

لقد وجّه "سعيد" كتابه: "الإستشراق" إلى فرنسا وبريطانيا ومن ثم أمريكا، دون التعمّق في الإستشراق الروسي والألماني وغيرهم ممّن لم يكن لديهم دوافع استعمارية واضحة.

ثم إنّ المنهج الذي اعتمده في تحليله للإستشراق لم يكن منهجا تحليليا نقديا خالصا يطبعه الطابع الإيبستيمولوجي البحث، بل نجده اعتمد المنهج التاريخي السّردي في قراءته الإستشراق إلى المرحلة التاريخية المعاصرة. وقد كان يهدف من تحليل الإستشراق إلى قراءته بمنهج نقدي إيبستيمولوجي وليس بمنهج تاريخي سردي كما يصرّح بذلك. وهذا يدلّ في نظرنا على وقوعه في التناقض المنطقي على مستوى المنهج.

كما لا يمكن لنا تعميم النتائج التي توصّل إليها "سعيد" على كلّ المستشرقين، إذ الكثير منهم حتى من الدول الإستعمارية أنصفوا العرب والإسلام، وبيّنوا فضلهم على الحضارة العربية المعاصرة بفضل دراسة مخطوطات التراث العربي والإسلامي. منهم: المستشرق "غوستاف فايل" **Gustave Weill** (1889-1808م) الذي قضى 16 سنة في تصنيف كتابه: "تاريخ الخلفاء".

وهو بالإضافة إلى ذلك، لم يعط بديلا عن الخطاب الإستشراقي الذي انتقده، فهو يعتبر أنّ دراسة الخطاب الإستشراقي لا تهدف إلى تأسيس خطاب إسلامي جديد أو خطاب الإستغراب. ففي هذا يقول: "إنّ الرّد على الإستشراق ليس الإستغراب". (سعيد إدوارد، 1995: 497) أو اقترح بديل عن الإستشراق أو مشروع فكري يناهض الإستشراق، بل تحليل النظام الفكري الذي يحكمه ومناقشة فكرة علاقة الغربي بالشرق من المنظور الإستشراقي. إنّه لا يمكن دراسة الغرب وتفكيك بنية العقل الغربي بديلا لمواجهة الخطاب الغربي حول الشرق.